# الفصل السادس

## الغزوة الإسبانية وثورة الريف

١ - التكوين الاجتماعى .
٢ - الحرب مع اسبانيا وانشاء عبد الكريم الخطابى جمهورية الريف .
٣ - المواجهة بين جمهورية الريف وفرنسا .

# ١ - التكوين الاجتماعى

كانت منطقة النفوذ الإسبانى فى المغرب ، بمقتضى اتفاق أكتوبر ١٩٠٤ بين إسبانيا وفرنسا ، والذى تعزز باتفاقية ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ ، تتركز فى شريط من الأراضى المغربية فى الشمال يمتد من مصب الملوية شرقا إلى جنوب العرائش عند الأطلنطى غربًا ، ويمر حدها الجنوبى بين القصر الكبير ووزان . وكانت هذه المنطقة تحتل الجزء الأكبر منها سلسلة جبلية تنقسم إلى كتلتين يفصل بينهما وادى غمارة : كتلة شرقية تعرف بالريف ، وهى كلمة لا صلة لها بالمدلول الشائع فى المشرق العربى ، وكتلة غربية تعرف بجبالة ، ويمتد القسم الشرقى من مليلة إلى سبتة ، أما القسم الغربى فيمتد من طنجة إلى العرائش ، وقد نظمت اتفاقية ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ بين فرنسا وإسبانيا إدارة منطقة النفوذ الإسبانى ، فجعلتها تابعة لسيادة السلطان ، الذى يعين خليفة له فى تطوان يخضع لإشراف الإدارة الإسبانية ، ولكنه يمارس جميع سلطات السلطان بموجب تفويض عام . وتستقل الإدارة الإسبانية بإدخال التنظيمات الإدارية التى تراها .

وتنتمى القبائل التى تسكن الريف وجبالة لأصل بربرى ، ولكن فى حين تأثرت منطقة جبالة بالعرب نتيجة لقرب أهليها من مراكز الثقافة العربية فى سهول المغرب المطلة على المحيط الأطلسى ، فإن قبائل الريف احتفظت بلغتها البربرية . أما سكان المدن فهم عرب فى لغتهم يختلط فيهم العنصران العربى والبربرى . وقد قدر عدد سكان المنطقة بنحو ٨٠٠ ألف ، منهم نحو ربع مليون من القبائل البربرية الخالصة تسكن جبال الريف . وبرغم إصرار الحكومة المغربية على سيادتها على المنطقة فإن هذه السيادة كانت اسمية .

وقد انقسمت منطقة النفوذ الإسبانى فى ذلك الحين بين زعامتين : زعامة

عبد الكريم الخطابى فى الريف ، وزعامة أحمد بن محمد الريسولى فى جبالة . وينتمى عبد الكريم الخطابى إلى قبيلة وريا غل، التى تسكن الاقليم المواجه لميناء الجسيمة ، وتعد أكبر وأقوى قبائل الريف نتيجة لامتلاكها الأراضى الزراعية . وقد اختارت فى السنوات الأولى من القرن العشرين الأمير عبد الكريم الخطابى رئيسًا لها ، وهو والد الزعيم الوطنى الكبير عبد الكريم الخطابى .

أما أحمد بن محمد الريسولى فهو زعيم مغربى ظهر فى منطقة جبالة ، واتخذ موقفًا معاديًا لحكومة المخزن بسبب استسلامها للضغط الأجنبى ، وقد اضطرت إلى الاعتراف به حاكمًا على الفحص بالقرب من طنجة . ثم تعاون مع مولاى عبد الحفيظ فعينه حاكمًا على جبالة . وكانت قيادة الريسولى تعتمد على علاقاته الإقطاعية بالأهالى وامتيازاته التى كان يستغلها باسم الدين .

## ٢ - الحرب مع أسبانيا وانشاء عبد الكريم الخطابى جمهورية الريف

فى الفترة السابقة على قيام الحرب العالمية الأولى ، حاولت إسبانيا مسايرة الفرنسيين فى التوسع فى منطقة نفوذها ، انطلاقًا من مدينتى مليلة وسبتة ، اللتين كانت تحتلهما منذ القرن الخامس عشر ، ولكن جهودها فى هذا الشأن لم تسفر إلا عن احتلال مدينتى القصر والعرائش فى يونيو ١٩١١ ، كرد فعل لاحتلال فرنسا لفاس . فقد اصطدمت فى منطقة الريف فى عام ١٩٠٩ بمقاومة بطل الريف الأول السيد محمد أمزيان التى استمرت عامين ، وعجزت بعدها عن فتح الريف . أما فى منطقة جبالة ، فقد اصطدمت بمقاومة الريسولى واضطرت إلى توقيع هدنة معه فى عام ١٩١٥ دامت إلى ١٩١٨ ، أبقته حاكمًا على إقليم جبالة ، وسمحت له بتلقى الأسلحة من الخارج . كما اضطرت إلى مهادنة قبائل الريف طيلة الحرب العالمية الأولى ، تأمينًا لمواصلاتها بين مليلة وسلوان والناظور .

على أنه لم تكد تنتهى الحرب ، حتى قررت إسبانيا تغيير سياستها ، واحتلال منطقة نفوذها احتلالا شاملا . وقد بدأت بالتوسع فى إقليم جبالة ، فأخضع الجنرال برانجى ( بيرنجر ) منطقة الأنجارا فى المثلث الواقع بين تطوان وسبته وطنجة ، واستعد لمهاجمة الريسولى . فأوعز إلى خليفة السلطان فى المنطقة الخليفية ، أى المنطقة الإسبانية ، بأن يعلنه خارجًا عن القانون فى ٥ يونيو ١٩١٩ ، واستطاع بعد معارك طويلة مع الريسولى احتلال شفشاون ، أهم مدينة فى منطقة جبالة فى أكتوبر ١٩٢٠ .

أما فى المنطقة الشرقية ، منطقة الريف ، فقد تقدمت قوات الجنرال سلفستر فى قطاع مليلة لاحتلال الريف ، فاحتلت « داردارىوس » فى مايو ١٩٢٠ ، ثم

« تفريست فى شهر أغسطس ، واستمرت فى التوغل حتى احتلت « أنوال » فى ١٥ مايو ١٩٢١ ، ثم احتلت جبل « إبران » ( عبران ) فى أول يوليو ، الذى يطل على الحسيمة ومنطقة أجدير Adjdir وبذلك أصبحت تهدد حاضرة قبيلة بنى ورياغل .

على أن حظ القوات الإسبانية فى منطقة الريف اختلف اختلافًا كبيرًا عنه فى منطقة جبالة ، بفضل قيادة الأمير عبد الكريم الخطابى الابن . وكان الأمير عبد الكريم الخطابى الأب قد توفى بعد احتلال الإسبانيين تفريست ، بينما كان ينظم المقاومة ضد الإسبانيين ، وتولى هذه المهمة بعده ابنه عبد الكريم ومعه أخوه سى محمد الخطابى . فأخذا فى تنظيم مجاهدى الريف وتدريبهم وتوزيعهم على المناطق والمواقع فى الجبال ، وتسهيل عمليات الاتصال بهم ، والسيطرة على الطرق والمسالك التى تتحرك فيها الطوابير الإسبانية . وعندما احتل الإسبان جبل إبران الذى يطل على الحسيمة ، سارع عبد الكريم بمهاجمتهم فى معركة هامة ، وتمكن من استرداده ، ثم واصل هجومه على جميع المواقع الأخرى التى احتلها الإسبانيون ، وضرب حصارًا حول حصن « أجربين » ، وفى ١٨ يوليو ١٩٢١ حقق انتصارًا حاسمًا على الإسبانيين فى موقعة أنوال ، مزق فيها الحملة الإسبانية بأسرها شر ممزق بما فيها القائد سلفستر نفسه .

وقد فتحت هذه المعركة آفاق انتفاضة واسعة قامت بها قبائل الريف ضد المراكز الإسبانية المبعثرة فى أنحاء المنطقة ، والتى كان عددها بين أنوال ومليلة تبلغ ١٣٠ موقعًا . فلم تمض بضعة أيام حتى كانت بلاد الريف قد تطهرت منها ، ولم يأت يوم ٢٥ يوليو إلا وكانت طلائع الوطنيين قد وصلت إلى أسوار مليلة ، وأصبح وجود الإسبانيين مقصورا على تطوان والموانى وبعض الحصون فى جبالة .

وقد أتاحت هذه الانتصارات الوطنية أمام الأمير عبد الكريم الخطابى الفرصة لإنشاء إدارة منظمة فى منطقة الريف ، وإنشاء جمهورية وطنية

ديمقراطية ، ويقول علال الفاسى ان عبد الكريم لم يرد الوقوع فى الخطأ الذى وقع فيه « الهبة » ووالده « ماء العينين » حينما أعلنا نفسيهما ملكين ، ورأى إقامة نظام مؤقت يمكن البلاد من التحرر الكامل ، ثم تسليم البلاد المحررة بعد ذلك إلى صاحب العرش المغربى الخاضع للنفوذ الفرنسى . لذلك عقد مؤتمرًا شعبيًّا دعا إليه ممثلى القبائل لإقامة نظام تأسيسى تسير به حكومة المقاومة ، وتقرر تأسيس « جمعية وطنية » تكون هى المرجع الأعلى ، وتأليف حكومة وطنية تدير الشئون وتضع القوانين والأنظمة اللازمة . وقد تشكلت هذه الجمعية الوطنية « من جماعات القبائل والأهالى والمشايخ والقواد طبقًا للعادة المتبعة فى المغرب ، كما تأسست حكومة دستورية جمهورية برئاسة محمد عبد الكريم بصفته قائد الحرب التحريرية فى ١٥ محرم ١٣٤٠ ( ١٩ سبتمبر ١٩٢١ ) ، وقد وضعت الجمعية الوطنية دستورًا وضع السلطتين التشريعية والتنفيذية فى يد الجمعية ، وجعل رئيس الجمهورية رئيسها ، وجعل رجال الحكومة مسئولين أمام رئيس الجمهورية ، وهو وحده المسئول أمام الجمعية الوطنية . كما نص على تشكيل وزارة من أربعة مناصب هى : مستشار رئيس الجمهورية ( ويقوم مقام رئيس الوزراء ) ووزير الخارجية ، ووزير المالية ، ووزير التجارة ، وأبقى الوزارات الأخرى كالداخلية والحربية ، لاختصاص رئيس الجمهورية . ثم وضعت الجمعية ميثاقًا قوميًّا ينص على عدم الاعتراف بأى معاهدة تمس حقوق البلاد المغربية ، وجلاء الإسبان عن المنطقة الريفية التى لم تكن فى حوزتهم قبل إبرام المعاهدة الإسبانية الفرنسية ١٩١٢ ، والاعتراف بالاستقلال التام للدولة الريفية الجمهورية . وأصبحت أجدير التى تبعد بضعة كيلومترات عن خليج الحسيمة عاصمة للدولة الجديدة .

وفى سنتى ١٩٢٢ و ١٩٢٣ دارت الحرب سجالا بين القوات الإسبانية ، التى أعيد تنظيمها ، وبين القوات الريفية . ففى شهر مارس ١٩٢٢ حشد الجنرال برانجى ( بيرانجر ) قواته بالحسيمة ، كما حشد قوات أخرى بناحية مليلة للإحداق بجبل بنى عروس أملا فى مهاجمة الأمير عبد الكريم بأجدير ، ولكنه منى بهزيمة ساحقة فى المعركة التى دارت حول الحسيمة ، دفعته إلى العدول عن

خطة الهجوم على أجدير . وعاد بيرانجى إلى خطة إخضاع القطاع الغربى أولا . وقد نجح بالفعل فى الاستيلاء على قصبة الريسولى « فى تازاروت » فى ١٢ مايو ، ولكن خليفته فى القيادة « برجيت » آثر الاتفاق مع الريسولى حتى تتفرغ القوات الإسبانية فى قطاع الريف ، وتوصل الفريقان إلى اتفاق ، بعد مفاوضات استمرت من ٦ أغسطس حتى ٢٨ سبتمبر ١٩٢٢ ، قدم فيه الإسبان تنازلات هامة للريسولى ، تمثلت فى جلائهم عن تازاروت ، ودفع تعويض للريسولى عما أتلفته العمليات الحربية فى منطقته ، ونقل جميع الضباط والموظفين الإسبان الذين أعلن عدم رضائه عنهم .

على أن الإسبان لم يستفيدوا من هذا الاتفاق فى تحقيق مايرجونه من تقدم فى قطاع مليلة . وفى الوقت نفسه لم يغنهم شيئًا اعتمادهم على الريسولى للمحافظة على الهدوء بين قبائل جبالة ، لأن انتصارات أبناء الريف كانت قد شجعت عددًا كبيرًا من القبائل على الانضمام إلى المقاومة ضد الإسبان . وجاء إلى عبد الكريم وفد يمثل منطقة سبتة والعرايش والقصر ، على رأسه شيوخ قبيلة غمارة يطلب المساعدة . فقررت الجمعية الوطنية الاستجابة ، واختير الأمير محمد الخطابى قائدًا للمنطقة الغربية ، التى تشمل الخط الممتد من شواطئ غمارة وضواحى تطوان وشمالى شفشاون إلى شاطئ المحيط الأطلنطى بين ثغر العرايش ومدينة القصر الكبير ، وبدأ زحفه بالنزول فى قبيلة زيان فى أقصى غمارة على « وادى لو » الشمالى ، واتخذ مدينة « سوق الأحد » مقرا لقيادته ، وأخذ فى إعادة تنظيم المنطقة مدنيًّا وعسكريًّا وقضائيًّا ، وأخذ يشن على المواقع الإسبانية حرب العصابات .

وقد استمر أبناء الريف فى مواصلة الضغط ، حتى أعلنت الحكومة الإسبانية يوم ٢٦ يونيو ١٩٢٤ قرارها بسحب جميع المواقع العسكرية المتقدمة فى كلا القطاعين والانسحاب إلى الساحل . ولكن قبل انتهاء الشهر كانت قوات عبد الكريم تشن هجومًا على المواقع الإسبانية فى وادى لو ، الذى يمر فيه الطريق الموصل بين تطوان وشفشاون ، وأخذت فى إغراء قبائل جبالة على

الانضمام إليهم . وتمكنت من قطع الطريق بين تطوان وشفشاون نهائيًا . كما تمكنت من قطع الطريق بين تطوان وطنجة . وفى أوائل شهر سبتمبر ١٩٢٤ نجحت فى الوصول إلى ضواحى تطوان ومهاجمة مقر الحماية الإسبانية ، واضطر الإسبان إلى تنفيذ سياسة الانسحاب إلى الساحل ، وإخلاء ما تبقى من إقليم جبالة ، ولا سيما حصن شفشاون بعد فك الحصار عنه فى ٢٩ سبتمبر . وقد تبين بعد إتمام الانسحاب عن شفشاون فى نوفمبر ١٩٢٤ أن الإسبان قد فقدوا فى هذه الحملة أكثر من عدد الجنود الذين ذهبوا لإنقاذهم من المراكز المحاصرة . وقد هدمت عملية الانسحاب كل النفوذ الإسبانى فى المغرب .

وعلى هذا النحو استطاع الأمير عبد الكريم مد نطاق زعامته إلى منطقة جبالة ، وبقيت مشكلة الريسولى . وفى يناير ١٩٢٥ عقد مؤتمر فى الشاون من رؤساء القبائل فى الريف وجباله ، قرر إرسال وفد إلى الريسولى يدعوه إلى الانضمام إلى المقاومة ، ولكن الريسولى رفض العرض ، وحرض بعض عناصر قبيلة الأخماس على مهاجمة الوطنيين ، فتقدمت أربع كتائب نظامية وحاصرت الأخماس واحتلتها ، ثم حاصرت تازاروت واحتلتها ، وألقت القبض على الريسولى ، ونقلته إلى أجدير حيث مات فى شهر أبريل ١٩٢٥ ، وبذلك أصبح عبد الكريم الخطابى بلا منافس من أى زعامة .

## ٣ - المواجهة بين جمهورية الريف وفرنسا

ومع انتشار الثورة الريفية ، وانسحاب الإسبان إلى الساحل ، أصبحت جمهورية الريف وجهًا لوجه مع منطقة الحماية الفرنسية فى الجنوب ، وبات الصدام مع فرنسا أمرا محتومًا . وكان الفرنسيون حين رأوا الأخطار التى تهدد منطقة حمايتهم من قيام الجمهورية الريفية ، قد أخذوا فى إتمام احتلال هذه المنطقة ، فأتموا فى أوائل عام ١٩٢٤ احتلال إقليم وزان ، المجاور للجزء الغربى من المنطقة الإسبانية ، وكانوا فى الشرق يسيطرون على تازه . وبقيت منطقة ورغة العليا فى الشمال الشرقى من فاس ، وكان الأمير عبد الكريم قد أرسل إليها بعض قواته للانضمام إلى رجال القبائل الوطنية لحمايتها . ولكن فى شهر مايو هاجم الفرنسيون هذه المنطقة وقاموا باحتلالها ، وأقاموا بها مراكزهم الحربية ، وبذلك تهيأت الأسباب للحرب مع فرنسا .

ذلك أن منطقة ورغة كانت فى الحقيقة هى المورد الوحيد الأساسى للغلال لبلاد الريف . وكانت القبائل التى تسكن فى أعاليها من مجموعة قبائل جبالة التى دخلت الجماعات الشمالية منها تحت لواء الجمهورية الريفية . وكان من الضرورى لذلك توحيد كل المنطقة وتحرير الجزء الجنوبى منها .

على أن حرص الأمير الخطابى على تجنب الحرب مع دولتين فى وقت واحد دفعه إلى محاولة فتح باب المفاوضات مع الفرنسيين ، وأرسل أخاه الأمير محمد الخطابى إلى باريس . ولكن الفرنسيين رفضوا إعطاء هذه المباحثات صفة رسمية ، حتى لا تعتبر اعترافا منهم بجمهورية الريف ، وحتى لا يؤثر ذلك على سلطة سلطان المغرب الخاضع لنفوذهم وحقوقه الإقليمية . وقد اقتنع الأمير محمد الخطابى حينذاك أن فرنسا مبيتة النية على العدوان .

وفى ١٣ أبريل ١٩٢٥ قامت قوات الريف بهجوم عام على القوات الفرنسية ، وقبل أن ينقضى الأسبوع الثالث للهجوم كانت معظم الحصون الفرنسية على ضفة نهر ورغة اليمنى قد سقطت أو حوصرت ، وبلغ عدد الحصون الفرنسية التى سقطت خلال الأسبوع الأول من شهر مايو ١٩٢٥ نحو ٤٠ حصناً . وكانت القبائل التى تقترب العمليات الحربية منها تنضم بكل رجالها إلى قوات الثورة . وظهر تحرج موقف القوات الفرنسية فى الفترة بين ٢٦ يونيو و ٦ يوليو فى قطاع تازه ، فقد وصلت قوات الريف فى أوائل يوليو إلى ضواحى تازه ، وقطعت خط السكة الحديدية بينها وبين جرسيف .

وقد اضطرت فرنسا إزاء ذلك إلى تنحية المارشال ليوتى ، المندوب السامى وقائد عام القوات الفرنسية فى المغرب ، عن قيادة الجيش ، وعينت الجنرال ناولان . ثم عادت وأرسلت المارشال بيتان، وسارعت بالدخول فى مفاوضات مع إسبانيا فى مدريد استمرت من ١٧ يونية إلى ٢٥ يوليو ١٩٢٥ ، واتفقت الدولتان فيها على تنسيق العمليات الحربية بين القيادتين ، وضرب حصار على الجمهورية الريفية لمنع وصول الإمدادات العسكرية ، وعدم عقد صلح منفرد . كما اتفقتا على الشروط العامة التى لا يمكن قبول أى صلح بدونها ، وإبلاغها إلى الأمير عبد الكريم ودعوته إلى قبولها ، وتقضى بضرورة الاعتراف للسلطان بالسيادة العليا الممثلة فى شخص خليفة تطوان . ولكن الأمير عبد الكريم رفض الدخول فى مفاوضات للصلح إلا على أساس الاعتراف باستقلال الريف .

ولم تلبث أن قامت حرب غير متكافئة بين القوات الريفية وبين قوات الدولتين الاستعماريتين استمرت من خريف ١٩٢٥ حتى مايو ١٩٢٦ وقد حشد فيها الفرنسيون والإسبان ٤٠٠ ألف جندى مزودين بأحدث الأسلحة والطائرات والدبابات ، فى حين كانت القوات الريفية مزودة بالبنادق ومدافع الماكينة وقليل من المدافع التى غنمتها فى خلال الحرب . وفى سبتمبر ١٩٢٥ نجح الإسبان بمعاونة البحرية الفرنسية فى إنزال قواتهم فى مكان قريب من خليج

الحسيمة ، واستطاعت احتلال أجدير ، فى حين كان الفرنسيون يهاجمون فى قطاع عملياتهم فى وادى ورغه ، واستطاعت خيالة الفرنسيين المتقدمة من تازا الاتصال بخيالة الإسبانيين المتقدمة من قطاع مليلة فى يوم ٦ أكتوبر . وفى ١٣ أكتوبر أعلن توقف العمليات العسكرية بسبب دخول فصل الشتاء .

وقد أثار الهجوم الاستعمارى احتجاج الرأى العام العالمى ، حتى فى داخل فرنسا وإسبانيا ، وكانت المظاهرات تطالب بإيقاف الحرب ، وتكونت جبهة عمل من الحزب الشيوعى « الفرنسى » والقوى التقدمية فى فرنسا ، وفى ١٢ أكتوبر ١٩٢٥ نظم إضراب عام اشترك فيه ٩٠٠,٠٠٠ عامل فرنسى احتجاجاً على سياسة الحكومة الفرنسية . كما سارت المظاهرات فى إسبانيا ضد الحرب ، واضطرت الدولتان تحت هذا الضغط إلى الدخول فى مفاوضات مع الأمير عبد الكريم . ولكنهما فرضتا شروطا قاسية تقضى بالاعتراف بسيادة السلطان ومغادرة الأمير الخطابى البلاد ، وتجريد قبائل الريف من السلاح ، وذلك فى مقابل الاعتراف باستقلال الريف الإدارى داخل نطاق المعاهدات القائمة ( الحماية ) . وقد اضطر الأمير الخطابى إلى قبول هذه الشروط أساساً للمفاوضة ، وانعقد لذلك مؤتمر من الأطراف الثلاثة فى « وجدة » استمر من ١٨ من أبريل ١٩٢٦ إلى ٦ من مايو ، ولكن تقدمت الدولتان الاستعماريتان فيه بمطالب تعسفية أخرى تتناول الإفراج عن الأسرى وتجريد القبائل من الأسلحة على يد القوات الفرنسية والإسبانية ، ففشلت المفاوضات يوم ٦ مايو .

واستؤنف القتال فى اليوم التالى ، وشنت القوات الإسبانية والفرنسية هجوماً على حصن « ترجست » الذى اتخذه الأمير الخطابى مقراً له بعد سقوط أجدير ، واستطاعت الاستيلاء عليه يوم ٢٣ من مايو ، وفى يوم ٢٦ أمر الأمير عبد الكريم بإطلاق سراح الأسرى ، وفى اليوم التالى سلم نفسه للفرنسيين . ونفى إلى جزيرة « ريونيون » التى بقى بها إلى عام ١٩٤٧ . وبذلك انتهت جمهورية الريف ، وإن ظلت المقاومة لبضعة أشهر فى بعض الأقاليم .

## مراجع للاستشارة :

- علال الفاسى : الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى ( القاهرة ١٩٤٨ ) .

- د . جلال يحيى : عبد الكريم الخطابى ( القاهرة : سلسلة أعلام العرب ١٩٦٨ ) أمين سعيد : ثورات العرب فى القرن العشرين ( القاهرة ) دار الهلال ، د . صلاح العقاد : المغرب العربى ( القاهرة ) الانجلو المصرية ١٩٦٩ .

Harris, W,B., France, Spain and the Rif (London 1927).